الخمريات :

فنّ أدبيّ ليس بجديد على الشعر العربي في العصر العباسي. وإنّما هو قديم ابتدأ به شعراءُ ما قبل الإسلام ، ويُعدُّ الأعشى أبرزهم وأكثرهم إطالةً في وصف الخمرة .(٢٢٣) ولما جاء الإسلام أمر بتحريمها وحدّ شاربيها ، لذلكَ قلّتْ معاقرتُها إلاّ من نفر قليل جداً مثل أبي محجن الثقفي الذي لم يسلم من الحدّ عدة مرات .(٢٢٤) وفي عصر بني أمية قرع كؤوسها عددٌ من الشعراء أمثال النابغة الشيباني(٢٢٥) . والقطامي(٢٢٦) . والأخطل(٢٢٧) . والوليد بن يزيد(٢٢٨) ...

ولما أقبلَ العصر العباسي بترفه ولهوه ومجونه وانفتاحه على أقوام كثيرة ولاسيما الفرس والروم ، شاعت الخمرة ، وتوسّعتْ مجالسها . وكثرتْ حاناتها وأنديتها . وزاد الأقبال عليها . وتوفّرَ الشعراء على وصفها بصورة لم تحدث من قبلُ . ويبدو أنّ الحرية والتساهل كانتا وراء هذا الإقبال . ولم يكن الخلفاء بمعزل عنها . فإنّ أكثرهم شربها . ويقال إن المنصور تناول النبيذ مرّةً واحدةً بعد أن زيّنَها له أحدُ

---

(٢٢٣) أمالي المرتضى ١ : ١٣٧ ـ ١٤١ .

(٢٢٣) ينظر : تطور الخمريات في الشعر العربي ص ٢٤ ، وأساليب الصناعة في شعر الخمر والغزل ص ١٥ .

(٢٢٤) الأغاني ١٩ : ١ .

(٢٢٥) ديوانه ص ٨٣ .

(٢٢٦) ديوانه ص ٧٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥١ ، ٢٩١ .

(٢٢٧) الأخطل الكبير ، حياته وشخصيته وقيمته الفنية ص ١١٤ ـ ١٣٠ .

(٢٢٨) الأغاني ٧ : ١٩ .

الأطباء « فشربه في اليوم الأول فاستطابه . فعاد له في اليوم الثاني . وزاد منه فخدره . ثم عاوده في اليوم الثالث فأبطأ عن صلاة الظهر والعصر والعشاء . فلما كان من غدٍ دعا بما عنده من الشراب فهراقه . ثم قال : ما ينبغي لمثلي أنْ يشربَ شيئاً يشغله »(٢٢٩) .

إنَّ أول شاعر خصَّص شعره لوصف الخمرة هو أبو الهندي غالب بن عبدالقدوس . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني : « وقد أدركَ الدولتين . دولة بني أمية . ودولة ولد العباس . وكان جزلَ الشعر . حسنَ الألفاظ . لطيفُ المعاني ... واستفرغَ شعره بصفةِ الخمر .وهو أولُ من وصفها من شعراء الإسلام . فجعل وصفها وَكْدَهُ وقَصْدَه »(٢٣٠) . وكان يحب الخمرة . ويبكي لفراقها . ويحنُ إليها حنين الفطيم إلى الرضاع . فها هو ذا يقول بعد أن أبطأ عن شربها مدّة :(٢٣١)

أديرا عليَّ الكأسَ إنّي فقدتُها ... كما فقدَ المفطومُ دَرَّ المراضع
حليفُ مدامٍ فارقَ الراحَ روحُهُ ... فظلَّ عليها مُستهلَّ المدامع

وإذا قال أبو الهندي(٢٣٢) :

اجعلوا . إنْ مِتُّ يوماً كفني ... ورقَ الكَرْمِ وقبري مَعْصَرَهْ
وادفنوني وادفنوا الراحَ معي ... واجعلوا الأقداح حول المقبرَهْ

فقد سبقه إليه أبو محجن الثقفي(٢٣٣) :

إذا مِتُّ فادفنّي إلى أصل كَرْمةٍ ... تُرَوّي عِظامي بعد موتي عروقُها
ولا تَدْفنَنّي في الفَلاةِ فإنّني ... أخافُ إذا ما مِتُّ ان لا أذوقُها(٢٣٤)

---

(٢٢٩) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٠١ .
(٢٣٠) الأغاني ٢٠ : ٢٢٩ .
(٢٣١) ديوانه ص ٤٤ ، الأغاني ٢٠ : ٢٣٣ .
(٢٣٢) ديوانه ص ٣٢ .
(٢٣٣) الأغاني ١٩ : ٧ .
(٢٣٤) أذوقها مرفوعة باعتبار (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن أو ضمير متكلم محذوف ، وجملة أذوقها خبر . تنظر ، خزانة الأدب ٢ : ٥٥ ط بولاق .

وقد استقى أبو نواس كثيراً من المعاني في وصف الخمرة من أبي الهندي . حدّث فضل اليزيدي : « انه سمع إسحاق الموصلي يوماً يقول ، وأنشد شعراً لأبي الهندي في صفة الخمر . فاستحسنه وقرّظه . فذُكِرَ عنده أبو نواس ، فقال : ومِنْ أين أخذ أبو نواس معانيه إلاّ من هذه الطبقة ؟ وأنا أوجدكم سَلْخَهُ هذه المعاني كلّها من شعره . فجعل ينشدُ بيتاً من شعر أبي الهندي ، ثم يستخرج المعنى والموضع الذي سرقه الحسن فيه حتى أتى على الأبيات كلها واستخرجها من شعره »(٢٣٥) .

ومن شعراء الخمرة المشهورين قبل أبي نواس . علي بن الخليل(٢٣٦) . وعُكّاشة العَنْبي(٢٣٧) . وابن سيّادة(٢٣٨) . وابن هرمة(٢٣٩) ... وميما قيل عن هؤلاء . فإن شعر الخمرة تطوّرَ تطوّراً كبيراً على يد أبي نواس . حتى عُدَّ زعيم شعراء الخمرة(٢٤٠) . وبقي شعره على مرّ العصور في صدر الدراسات التي تحدثت عن الخمريات . لما له من بريق أخّاذ . وأريحية غلّابة متأتية من قوّة الطبع إلى جانب بساطة الأسلوب وحلاوة اللفظ ورشاقة الوزن(٢٤١) .

لقد عشق أبو نواس الخمرة عشقاً عنيفاً قوياً . ووصل شعوره نحوها إلى درجة التقديس . وقد أشار إلى هذه الحقيقة الدكتور طه حسين حين توقّف أمام مقطوعته(٢٤٢) :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ... ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ
ولا تجعل الماء لها قاهراً ... ولا تسلطنها على مالها قهرُ
كرخيّةٌ قد غُتّقَتْ حِقبةً ... حتى مضى أكثرُ أجزائها
فلم يكد يُدرك خُمّارُها ... منها سوى أخر حوبائها
دارت فأحيت غير مذمومة ... نفوس خرّاها وأبغائها
والخمرُ قد يشربُها معشرٌ ... ليسوا إذا عُدّوا بأكفائها

(٢٣٥) الأغاني ٢٠ : ٣٣٩ .
(٢٣٦) الأغاني ١٤ : ١٧٤ .
(٢٣٧) الأغاني ٢ : ٣٥٧ .
(٢٣٨) الحيوان ٢ : ٣٣٧ ، البيان والتبيين ٣ : ٣٤٥ ، ٣٥٠ .
(٢٣٩) ديوانه ص ٣٢٤ .
(٢٤٠) ينظر : أبو نواس زعيم شعراء الخمرة ص ٣٣ ـ ٨٥ .
(٢٤١) ينظر : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٤٢٧ . الشعر وطوابعه الشعبية ص ٨٥ .
(٢٤٢) حديث الأربعاء ٢ : ٨٧ . وينظر ديوان أبي نواس ص ١٢ .

إنّ شعر الخمرة في العصر العباسي يشكّل ديواناً كبيراً يتناول وصفها وما يتصل بها من ندامى وسقاة وكؤوس ومجون ... وفي هذا الشعر جانب جديد يمكن أنْ يطلق عليه ـ كما يقول الدكتور هنارة(٢٤٣) ـ اسم أدب الديارات . ويقصد به الشعر الذي كان يتردّدُ حول مجالس الشراب في الأديرة التي كانت منتشرة في العراق والشام ومصر . وقد عُرف جماعةٌ من الشعراء بالذهاب إلى هذه الأديرة أمثال أبي نواس . والحسين بن الضحّاك . وعمرو الوراق ،ومطيع بن إياس . وأبي الشبل البُرجمي . ومحمد بن عبدالرحمن الكوفي المعروف بالثرواني ، وبكر بن خارجة الكوفي ، ومحمد بن أبي أمية . واسحاق الموصلي . وخالد الكاتب الذي يقول في دير (سَمالُو) الذي يقع بباب الشماسية شرقي بغداد :(٢٤٤) :

يامنزلَ القَصْفِ في سَمالُو ... ماليَ عن طِيبِكَ انتقالُ
واهاً لأيامِكَ الخوالي ... والعيشُ صافٍ بها زلالُ
تلكَ حياةُ النُفوسِ حقّاً ... وكلُ ما دونَها مُحالُ

وهكذا أصبحت الأديرة « مقصداً وهدفاً لطلاب اللذة والمتعة ، وأصحاب اللهو والمجون ، وإذا بالشعراء والأدباء وغيرهم من مُغرمي موائد الشراب ومجالسه ، يقطعون المسافات للوصول إلى هذا الدير ، أو ذاك ، لما شَهر به من نبيذ حسن ، وخمرة جيدة ، وطيب معشر سكانه ، والقيمين عليه ، وإذا بهذه الديارات تدخل الأدب العربي عن طريق الشعر خاصة بأبيات ومقاطع وحتى بقصائد كاملة . تُمجدها ويذكر الشعراء فيها أيامهم الجميلة ، ولياليهم السعيدة الحلوة التي قضوها فيها ، ثم يتمنون العودة إليها ، أو يتواعدون على اللقاء في الدير الفلاني ، وقد تنشأ علاقة صداقة ومودة خالصة بين المجّان وطلاب المتعة وبين المسؤولين عن هذه الديارات ((٢٤٥) .

إن رواد الديارات كانوا « يتنافسون فيما يظهرون هنالك من زيهم ، ويباهون بما يعدّونه لقصفهم »(٢٤٦) ، وقد عدّ الدكتور يوسف خليف شعر الديارات لوحة من لوحات صورة الأدب المكشوف ، صوّر فيها الشعراء الجانب اللاهي من

---

(٢٤٣) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٤٩٧ .
(٢٤٤) ديوان خالد الكاتب ص ٥٦٣ . وتنظر : الديارات للشابشتي ص ١٥ .
(٢٤٥) الأندية الأدبية في العصر العباسي ص ١٧٨ .
(٢٤٦) الديارات ص ٩٦ .

حياتهم . فوصفوا مجالس الشراب . وتغزّلوا بالفتيان والفتيات الذين كانوا يقومون على أمر الأديرة ويقدمون الخمر لروادها(٢٤٧) . وقد صدق ما قاله جحظة في دير الزَّنْد وَرْد القريب من بغداد(٢٤٨) :

سقياً ورعياً لديرِ الزَّنْد ورد وما ... يحوي ويجمعُ من راجٍ وريحانِ
ديرٌ تدورُ به الأقداحُ مترعةً ... من كفّ ساقٍ مريضِ الطرفِ وسنانِ
والعودُ يتبعهُ نايٌ يوافقُه ... والشدو يحكمُه غصنٌ من البانِ